الفصل الثاني

ثقافة الطفل العربى ومناهج التعليم

1 ـ إشكاليات ثقافة الطفل العربى .

2 ـ اللغة العربية وثقافة عصر المعرفة .

3 ـ رؤى مستقبلية لثقافة الطفل والمناهج .

ثقافة الطفل العربى ومناهج التعليم(*)

أولا : إشكاليات ثقافة الطفل العربى :

الثقافة أسلوب حياة ، يكتسبه الإنسان مشاركا فيه أعضاء مجتمعه ، وهى نمط للسلوك يمارسه الإنسان داخل مجتمعه وخارجه . والثقافة تشمل طرق الإنتاج التى تتأثر بالظروف الطبيعية لكل مجتمع ، وتشمل الأساليب العلمية وغير العلمية وأنواع المعرفة والعادات والتقاليد ، ووسائل التبادل الفكرى من لغة وأدوات مختلفة ونظم اجتماعية واقتصادية وسياسية والمعانى المختلفة للحقوق والواجبات والمسئوليات والأخلاق . وهناك تقسيمات مختلفة للثقافة أهمها تقسيم الثقافة إلى ثلاثة مستويات هى : العموميات وتشمل العناصر المشتركة بين جميع أفراد المجتمع، والخصوصيات وتشمل العناصر التى توجد لدى مجموعة أو أكثر من أفراد طائفة مهنية أو هيئة معينة ، ثم المتغيرات وتشمل عناصر معينة ليست منتشرة بين أفراد المجتمع ، يمارس فيها الإنسان أساليب الاختيار وهى مجال للابتكار لرفع مستوى الثقافة وتجديدها .

إنها حصيلة للنشاط الإنسانى عبر الأجيال ، لذا يطلق عليها أحيانا اسم البيئة المصنوعة ، حيث يتسلم كل جيل عناصر من ثقافة الجيل الذى يسبقه ويحور فيها أو يضيف إليها ، أو يستبعد منها ويخرجها فى بنيان جديد .

وجدير بالذكر أن لكل مجتمع ثقافة خاصة به ، وليس بالوسع تصور مجتمع بلا ثقافة ، حيث إن تنوع المجتمعات يعنى تنوع الثقافات مادامت الثقافة أسلوب

(*) هذه الدراسة قدمت إلى الجمعية العربية للثقافة فى عمان – الأردن فى فعاليات (عمان عاصمة ثقافية) 2002 .

حياة. وهى تتغير سرعة وبطئا بتغير العصور داخل المجتمع الواحد ، حيث تختلف الثقافة باختلاف الأجيال ، وتختلف فى مكوناتها وفى انتظام عناصرها ، ويكتسب الإنسان ثقافته من مجتمعه ، ولكنه لا يحمل كل ما فى ذلك المجتمع من عناصر ثقافية .

والثقافة هى تأكيد لإنسانية الإنسان ، وإبراز لهويته المميزة ، وهى عامل توحيد بين أبناء الشعب الواحد ، وعامل أساسى فى تغيير المجتمع ورسم طموحاته ، وعامل تفاهم وسلام بين مختلف الشعوب .

والثقافة تتضمن أمورا معنوية كاللغة والرياضيات والقوانين والعادات والاتجاهات ، كما تتضمن أمورا مادية كالمساكن والطرقات والأجهزة والوسائل والأدوات ، وهى فى جملة واحدة أسلوب حياة ، وترتسم عمليا فى تراث أمتنا المادى والروحى الذى يشكل خصائصها وقيمها وصورتها الحضارية عبر العصور ، وفى سلوكها الحياتى وإبداعها المتصل المتطور ومثلها العليا المتحركة ، وفى طموحاتها المستقبلية وما تتخذه لنفسها من أهداف إنسانية ومن تطلع إلى غد أفضل مرجو .

وثقافتنا العربية ثقافة أصيلة ثنائية الدور : الدور القومى والدور الإنسانى معا ، فهى وسيلة وحدة الأمة العربية الإسلامية لأنها هى التى تنسج وحدة التكوين الداخلى فيها ، وتوجد فى أعماق الذات نماذجها البشرية وقيمها ، وتجمع أفرادها على الالتزام بمصيرها التضامنى الواحد ، كما أنها وسيلة تأكيد للذات وللتمايز عن الآخرين ، ووسيلة أمان لأفراد الأمة ، فهى أكثر الأنشطة اتصالا بكرامة الإنسان وأعمقها تأكيدا لذاتيته وتعزيزا لشخصيته ، إذ إنه لا يمارس حريته كاملة إلا من خلالها ، ولا يشعر بتحقيق ذاته إلا فيها وهى وسيلة دفاع وحصن أمان فى اللحظات المصيرية ، ووسيلة لقاء مع الآخرين على المثل العليا المشتركة ، وسبيل تفاهم الشعوب على السلام والمصير الأفضل والقيم المشتركة .

والتنمية الثقافية جزء من التنمية الشاملة للمجتمع ، ومكونات الثقافة وعناصرها تتبادل التأثير والتأثر فيما بينها . وهذه العناصر تتمثل فى اللغة بمفهومها الشامل ، وفى المعتقدات من دين وأساطير وأخلاقيات ، وفى التركيب الجمالى من فنون وآداب وتعبير موسيقى وشعر وقصص ومسرح وسينما ورقص ، وفى التركيب الاجتماعى من تنظيمات حقوقية واقتصادية وتعليمية وسياسية ، وفى الثقافة وأنماط السلوك المادى من مأكل ومشرب وملبس ومأوى وطراز حياة . كما أن الثقافة تؤدى وظائف متعددة للإنسان بعضها اجتماعى حيث تدخله فى أسلوب حياة الجماعة ، وبعضها نفسى حيث تشبع ميوله وحاجاته ، وبعضها عقلى حيث تجيب عن أسئلته وتساؤلاته عن البيئة والكون والحياة .. كل ذلك يوجب علينا أن نقدم لأطفالنا الثقافة المتنوعة بعناصرها المختلفة ، وأن نقدمها لهم بالتدريج ، وفى ضوء قدراتهم ومتطلباتهم وحاجاتهم .

إن ما يجب الالتفات إليه هنا هو سيطرة التكنولوجيا الفائقة على الثقافة وما نتج عنها من موجات من الانحلال الخلقى والتفكك الأسرى والعنف والجريمة والإدمان والتهرب من المسئولية ، بل والهروب من الحياة ذاتها بالانتحار ، وهى ظواهر تجتاح كثيرا من دول الغرب المتقدمة . ومن هنا وفى إطار التكنولوجيا المتطورة نشأت ثقافة العنف ، وذلك أن حجم صناعة البرامج الإلكترونية الخاصة بالتسلية والتى أساسها العنف تبلغ ستة عشر مليارا من الدولات سنويا فى أمريكا وحدها . إن صناعة الفيديو والسينما والبرامج الإليكترونية التى تبث على الشعب الأمريكى تركت تأثيرات خطرة ، وأزالت الحد الفاصل بين الحقيقة والخيال لدى أجيال كثيرة ، ومن الثابت علميا أن تعود الإنسان العنف يقلل من إحساسه بجرم أو غرابة أو استهجان هذا الفعل عن طريقة عملية تقليل الحساسية . وهذا يعنى أننا نعيش مرحلة نبنى فيها ثقافة عالمية يؤثر فيها العنف والتدمير على الأجيال القادمة ؛ أى إن المجتمع الأمريكى متسمم بالتكنولوجيا ، حيث مهدت لثقافة العنف وأثرت على التماسك العائلى والاجتماعى ، ذلك أن أفراد العائلة الواحدة يعيشون فى غربة

وهم فى بيت واحد ، كل منهم فى حجرة ، ويمسك بجهاز ويتعامل مع أشياء منفردا وحيدا ، وأقسى أنواع الغربة هى الغربة المكانية التى يعيشها إنسان الألفية الثالثة .

إن علينا مسئولية فى هذا المضمار . فالعالم العربى سبق الحضارة الإنسانية بآلاف السنين ، وكان له ولا يزال دور مرموق فى نشر الثقافة والديانات السماوية الثلاثة والتنوير فى ربوع العالم .

ولا يليق فى عصر العلم والمعلومات ألا يلعب العالم العربى دورا مأمولا مرتقبا فى إعطاء صورة جديدة وتوازن مطلوب ، وتحقيق نموذج يمكن أن يغرى الآخرين ، وأن يكون مجالا لنشر قيم التسامح والتكافل والتعايش والسلام المبنى على الحق والعدل . إن القوى المهمشة ثقافيا والشرائح غير القادرة ، والدول النامية التى أهملت مصالحها ونهبت مواردها وألغيت عمليا طموحاتها وآمالها لازالت قادرة على ردود الأفعال المتنوعة والمتباينة فى مداها وخطورتها . إن القطيع الإلكترونى ذا الألف ذراع مهما بلغت قوته ، ومهما وصلت قدرته بحكم ما أحدثه أو ما صاحبه من تقدم هائل قد أعطى الفرصة أيضا للمهمشين وللمطحونين والمقهورين أن يعبروا عن إحساسهم ، وعن شعورهم بالمرارة ، وعن قدرتهم على الرفض والاحتجاج .

الطفولة مرحلة نمو مستمر ، مرحلة لها خصائص وقدرات ومهارات وميول وعادات وأنماط نشاط وسلوك متميزة ، ناهيك عن قاموس لغوى وقيم ومفاهيم وطرق خاصة للعب والتعبير ، وكلها خصائص ثقافية ينفرد بها الأطفال عن مجتمع الكبار ، فأسلوبهم فى الحياة أسلوب خاص فى السلوك والملبس وتصرفات اجتماعية، إنهم يحسون ويدركون ويتخيلون ويفكرون فى إطار خصوصيتهم . وهى ثقافة ليست واحدة فى كل الدول العربية ، بل تختلف فى مراحل الطفولة من دولة إلى دولة أخرى تؤثر فيها وسائط ووسائل وأساليب فى الاتصال والتواصل الثقافى فى البيت والمدرسة ودور العبادة ووسائل الإعلام ، وقد تتقارب إلى حد ما ؛ نتيجة

لعصر السماوات المفتوحة ، والشبكة العنكبوتية والبرامج المتلفزة والمذاعة والثقافة الورقية والكمبيوترية والألعاب الكمبيوترية .

إن الأطفال لا يشكلون جمهورا متجانسا ، حيث يختلفون باختلاف أطوار نموهم ومراحل الطفولة بدءا من مرحلة الطفولة المبكرة ، والطفولة الوسطى حتى الطفولة المتأخرة . ولكل مرحلة ثقافتها الخاصة التى تتوافق مع خصائص تلك المرحلة ولأطفالها حاجاتها ولغتهم وأساليب تعبيرهم وقيمهم ومفاهيمهم وعاداتهم . وثقافة الأطفال تختلف داخل المرحلة العمرية الواحدة باختلاف البيئة الاجتماعية والبيئة الجغرافية ومستوى تعليم الوالدين ، والبيئة الاقتصادية حيث تختلف المؤثرات التى يتعرض لها الأطفال فى كل بيئة من هذه البيئات داخل الأسرة وخارجها . ومن هنا تظهر فى ثقافة الأطفال عموميات ثقافية وخصوصيات وبديلات ، تختلف باختلاف هذه المتغيرات الأسرية والاجتماعية والبيئة الجغرافية والانتماء المهنى والطبقى لذويهم ، ومع كل ذلك فثقافة الأطفال ثقافة فرعية من ثقافة كل مجتمع من المجتمعات ، تشاركه ثقافته العامة فى بعض عناصرها ، لكنها تحتفظ بأنها كيان متميز فى اللغة وأنماط التعبير والعادات والميول والعواطف والانفعالات والتفاعلات والمهارات وطرق التفكير والتخيل والمثل العليا والنتاجات الفنية والأغانى والحكايات والموسيقى وأنماط السلوك ، ومعنى ذلك أن ثقافة الأطفال تختلف عن ثقافة الكبار مضمونا ونسقا ثقافيا .

وبدهى أن كل دولة عربية تسعى إلى غرس ثقافتها المجتمعية داخل عالم الأطفال ، والأطفال بدورهم يمتصون منها عناصر وجوانب محددة ، ثم إنهم يحورون ويضيفون إلى هذه الثقافة المجتمعية التى يقدمها لهم الكبار . وهناك عوامل تؤثر فى تكوين ثقافة الأطفال منها نظرة المجتمع إلى مرحلة الطفولة ، ووسائله فى نقل الثقافة إلى الأطفال ، ومدى القداسة التى يخلعها على بعض عناصر الثقافة ، وطبيعة النظام الاجتماعى والاقتصادى والتوجهات المستقبلية .

ومن أهم أنشطة التنمية الثقافية لأطفالنا إغناء الخبرات المباشرة بالرحلات والنزهات والزيارات ، وإعطاء الأطفال حرية التساؤل عما يدور فى مخيلاتهم ، وتوفير جو من البهجة والتسامح والحرية وممارسة النشاط بالرسم والتلوين والموسيقى والتمثيل والغناء والقراءة والرقص والألعاب الفردية والجماعية . وتوسيع خيالات الأطفال بسرد الحكايات والقصص وعرض الأفلام وزيارة البيئة المحلية واقتناء الكتب والقصص والمجالات واللعب والأشكال والكمبيوتر وألعابه المتنوعة والتسجيلات ، والتحلى بالصبر فى الإجابة عن أسئلة الأطفال والاستماع إلى آرائهم وأفكارهم وتساؤلاتهم ، وتدريبهم على السلوك الديمقراطى واحترام الآراء وتقدير أفكار الطفل واحترامه وتقدير ثقافات الشعوب ، وتدريبه على اتخاذ القرار وإبداء الرأى والتفسير والربط والتعليل والانتقاء والبعد عن التحيز والتجريب ، وتأمين الأجواء النفسية المناسبة والمريحة فى التعامل مع الكبار أو الصغار أو الأصدقاء ، وإتاحة الفرص أمامه للمشاركة فى الفرق الرياضية والكشفية والفنية والأنشطة البيئية ، وتدريبه على اتباع قواعد ومعايير المعاملة الحسنة السليمة ، وعدم التمييز بين الناس على أساس اللون أو الجنس أو الوظيفة أو النوع (ذكر – أنثى) ، وتغذيته بالقرآن الكريم وأحاديث الرسول الكريم وقصص الصحابة والتابعين والأبطال والعلماء والمبتكرين وتاريخ حياتهم وقصص كفاحهم، وإعطاء الأطفال النموذج والقدوة الحسنة ، وتأكيد قيم الوطنية والولاء والانتماء للأمة العربية الإسلامية برواية تاريخها وحضارتها وإنجازات مفكريها وعلمائها وقاداتها وأبطالها ورموزها وانتصاراتها وفتوحات المسلمين ، مع التأكيد على قيم التسامح واحترام الآخر والحوار وعدم التعصب والانفتاح والاستقلالية والمرونة والثقة بالنفس والثقة فى الآخرين والمسئولين واستثمار الوقت فى القراءة والاطلاع واللعب الهادف وممارسة الفنون ، والاعتزاز بهويته بهدف بناء الطفل العربى بناء سليما متوازنا متكاملا ناميا متطورا فى الأسرة والمدرسة ودور العبارة ووسائل

الإعلام وحسن انتقاء الأصدقاء والأقران والمراكز الثقافية والأندية وبيوت الثقافة . إن هناك ثلاث مشكلات تواجه تثقيف الطفل العربى ، تدعونا إلى الالتفات إليها عند تخطيط البرامج الثقافية وبناء المناهج التعليمية . وأولى هذه المشكلات النسبية الثقافية ، ذلك أن الثقافة أسلوب حياة ، وتتفاوت هذه الأساليب الحياتية باختلاف المجتمعات ، وثانية هذه المشكلات الانتشار الثقافى ، فهى تنتشر أفقيا من مجتمع إلى مجتمع فى ظل السماوات المفتوحة ووسائل الاتصال السريعة الحديثة ، وثالثتها الغزو الثقافى . وكل هذه الأمور التى تتسم بها طبيعة الثقافة تعرض الأطفال إلى اتجاهات وأنماط سلوك غير مقبولة فى المجتمع الذى يحتضن الطفل العربى ، وقد تسعى بعض عناصر هذه الثقافة الوافدة إلى التهوين من مفاهيم ومعتقدات الدول العربية، ومن خصوصياتها وتقاليدها وأعرافها كما أنها تمثل متغيرات وبدائل تدخل فى بناء شخصية الطفل العربى ؛ الأمر الذى يتطلب دورا فاعلا للمناهج التعليمية فى تحصين الطفل العربى بالفكر الناقد والوعى القومى والقيم الإسلامية .

ويواجه الطفل العربى فى هذا الإطار باتجاهات متباينة تتمحور حول الهوية وتكوين الذات ، وهى من أكثر الإشكاليات المعاصرة خاصة فى دول الخليج العربى، حيث احتدام الحوار والجدل حول الأصالة والخصوصية والمعاصرة والانفتاح على حاضرنا الثقافى . إن مفهوم الهوية الثقافية عند أنصار الأصالة يعنى أن ذاتنا الثقافية تتمتع بأصول الحياة التى يزخر بها الماضى ، والتى مكنت من إرساء حضارة عربية إسلامية زاهرة ، حيث أيام العز والمجد ، وإحياء التراث والسنن والمواضعات التى انتهجها السلف الموصوف بأنه سلف صالح على الدوام . وشكواهم من الحاضر مردها إلى الابتعاد عن الأصول والأصالة ، ومن ثم فإن الماضى أفضل من الحاضر . بل يرى بعض غلاة هذا الموقف أن مسيرة التاريخ تراجعية . وارتبطت الأصالة بالتراث وما قدمه السابقون من علم وفكر وفقه وعادات وتقاليد ونظم وأسلوب حياة ، وأعطى التراث نوعا من التبجيل وتحول

التعامل معه من مجرد أنه نتاج بشرى ومنجزات تاريخية فى ظرف وملابسات مجتمعية معينة إلى كونه مقدسات معنوية يتوجب الالتزام بها ، واللجوء إليها هربا من هزات وأزمات الحاضر باعتبار تراث السلف مرفأ أمان وطوق نجاة .

وفى المقابل أخذت الهوية العربية وخاصة فى شمال إفريقيا مفهوم المعاصرة . وهذا يعنى أن ذاتنا الثقافية مستمدة من الانبهار بمقومات الحضارة الغربية ، وما أحرزته تلك الحضارة من تقدم علمى وتقنى ، قائم على سعيها الدائب للسيطرة على الطبيعة والتحكم فيها ، ويتضح هذا التقدم من ميادين الزراعة والصناعة وإنتاج السلع والاختراعات العلمية فى مجالات الطب والهندسة النقل والمواصلات ، وغير ذلك من مجالات السلم والحرب . هذا إلى جانب تنظيم حياتها الاجتماعية والعمرانية . واتجهت الثقافة العربية بهذا المعنى إلى ما سمى بالتحديث أو العصرنة أو الغربنة. وبيت القصيد هنا يكمن فى محاولة اللحاق بركب الحضارة الغربية وأنماطها وأساليبها فى التنمية والتقدم . ولن يتأتى ذلك إلا عن طريق عبور الفجوة التكنولوجية ، واصطناع معداتها وآلياتها واستيراد الأدوات التكنولوجية ، ونقل مؤسساتها ونظمها فى إدارة المجتمع وتطويره .

والواقع أن التضاد بين طرفى إشكالية الأصالة والمعاصرة فى فهم الثقافة العربية ، يعكس فى كثير من الأحيان مواقف سياسية وأيديولوجية تقوم على تقليد الماضى أو الحاضر . وإذا كنا نحن العرب المسلمين صانعى ثقافتنا القومية ، فعلينا أن ننطلق من تشخيص الحاضر وأبعاده وحركته فى ضوء أهداف مستقبلية منشودة تمثل القاعدة المشتركة والصلبة لبناء الإنسان العربى المسلم فى إطار مشروع اجتماعى قومى حضارى . وعلينا أن ننظر فى أوجه الخلل فى السياق الاجتماعى الذى نعيش فيه ، ونقترح الحلول الفعالة أو نصنع نحن الحلول ، ونستفيد من التراث لكسب الثقة بالنفس وشحذ الإرادة ، ثم نحرك الواقع بتعاملنا مع الثقافات الأجنبية والتعامل الحتمى مع عالم اليوم وعالم الغد على أساس الحوار والانفتاح الواعى ؛

حتى تصبح هويتنا رهنا لما نصنع نحن لتغدو ثقافتنا الإطار الذى نبنى من خلاله الإنسان العربى لمواجهة تحديات الحاضر والمستقبل .

إن النقلة النوعية التى يتوجب علينا الانتقال إليها لتثقيف الطفل العربى هى أن الثقافة فى عصر المعلومات صناعة قائمة بذاتها . ومن العقم أن نكرر الجدل حول إشكاليات الأصالة والمعاصرة ، وثقافة النخبة وثقافة العامة وتعريب التعليم أم تقديم العلوم بلغة الاختراع والابتكار ، وثقافة عصر المعلومات هى التى تحتاج خلفية معرفية وتكنولوجية مغايرة تماما لما كانت عليه فى الماضى . وعلينا أن نضع خطابنا الثقافى على نقطة متقدمة ، حتى يركز هذا الخطاب على القضايا الاجتماعية المتعددة والساخنة التى أفرزها المتغير المعلوماتى . الثقافة الآن هى محور عملية التنمية الاجتماعية الشاملة ، فمع قدوم عصر المعلومات جاء عصر صناعة الثقافة وإعادة بناء المجتمعات . لقد انقضت تكنولوجيا المعلومات على الثقافة من خلال السماوات المفتوحة عبر نظم الإعلام وشبكة الانترنت . وعلى المثقف أن يواجه خياره المصيرى .. عليه أن يدرك ما تعنيه تكنولوجيا المعلومات له ولجماهيره، وأن يتقن استخدام أدواتها ، وعليه تطبيق الفكر على الواقع من حوله واقتراح أساليب للتعامل مع تناقضات هذا الواقع من أجل تحسينه أو تغييره . وعليه أن يواجه تركيبة جديدة من القوى الاجتماعية وساحة جديدة للرأى العام وبحيث يصبح المثقف الناقد ، والمناضل المشتبك مع واقعه المساهم فى تغييره . عليه التعرف على خريطة الفكر العربى الراهن وتوجهاته الرئيسة ، ثم التخلص من عزلته الذهنية المفاهيمية زمانا ومكانا ، وهى العزلة التى تنعكس على موقفه من الأحداث ومن تقويمها . وعليه استيعاب الجوانب الثقافية والاجتماعية للمتغير المعلوماتى ، وتجديد عدته المعرفية من نظرية الأدب إلى نظرية المعلومات ومن قضايا الاقتصاد إلى البيولوجيا الجزئية ومن فلسفة العلم إلى الذكاء الاصطناعى وعوالم الإنترنت ، واكتساب مهارات التواصل عبر الشبكة العنكبوتية وإجادة ثقافة الحوار عن بعد .

إن المثقف فى عصر الثقافة التكنولوجيا عليه أن يدرك الثقافة باعتبارات شتى، الثقافة كنسق اجتماعى قوامه القيم والمعتقدات والمعارف والفنون والممارسات الاجتماعية والأنماط المعيشية ، والثقافة باعتبارها أيديولوجية يرى الفرد من خلالها ذاته ومجتمعه وهى بذلك معيار للحكم على الأمور ، ثم الثقافة بوصفها انتماء تعبر عن التراث والهوية والحمية القومية وطابع الحياة اليومية للجماعة الثقافية ، والثقافة بوصفها تواصلا من خلال نقل أنماط العلاقات والمعانى والخبرات بين الأجيال ، ثم الثقافة بوصفها دافعا على الابتكار والإبداع والنضال ضد القهر والتصدى لصنوف الظلم ، والثقافة بعد ذلك كله باعتبارها حصادا متجددا يتم استهلاكه وإعادة إنتاجه والتفاعل معه وإدماجه فى مسار الحياة اليومية . ويأتى المتغير المعلوماتى ليضيف إلى الثقافة تعقيدا على تعقيد لتجعل هى بدورها من التنمية إشكالية شائكة للغاية . إن الأخذ بعلوم المستقبل من خلال الثقافة وعصر المعلمات يجعل البرامج المستقبلية تشكل طفلا عربيا متعلما واعيا بمبدأ الحرية والتسامح الفكرى ، وآخذا بالعدالة الاجتماعية ، مستعدا عقليا ونفسيا لقبول التغيير والتكيف معه ، يأخذ بمفهوم ديناميكى للزمان ، وبالتخطيط وسيلة أساسية للتعامل مع المستقبل ، يراعى الإتقان ودقة التنفيذ ، وتعود التفكير العلمى للمستقبل .

وهذه البرامج تقدم مشكلات واقعية تحفز الطلاب على التفكير فيها وتقدم حلولا مناسبة ومتنوعة ، باستخدام العصف الذهنى ولعب الأدوار والتعلم التعاونى ؛ مما ينمى قدرات التصور والتخيل والتحليل المنطقى . ومناهج المستقبل تراعى ثلاث خصائص : أولاها التمديد أى توسيع نطاق التعليم زمنيا بحيث يغطى كل فترات حياة المتعلم ، وثانيتها التجديد بتطوير أساليب الأداء والتقويم وأشكال تربوية جديدة ، وثالثتها التكامل بين وسائط التربية تحقيقا لوحدة المعرفة الإنسانية ، ويتم ذلك من خلال التدريس المفرد ، وتكنولوجيا الوسائط المتعددة ، والتعليم المفتوح ، والتدريس الفريقى ، وتقسيم العمل بالتدريس ، واستخدام تقنيات ومنهجيات حديثة ، لتوليد المعلومات .

وللمناهج الدراسية دور واضح حيال الثقافة يمكن أن تقوم به فى تهيئة ظروف التفاعل الناجح لاكتساب مجموعة من الخبرات المرغوبة والمناسبة والمفيدة للتلاميذ. وتتضح هذه العلاقة المنشودة من خلال تصور التربويين لمفهوم الثقافة وعلاقتها بالمنهج ، فهى أحد عناصر بنائه ، والمناهج لا تستورد بل تصنع محليا والثقافة ببساطة هى معرفة شىء عن شىء . والمثقف بهذا المفهوم الضيق للثقافة هو من يمتلك قسطا من المعرفة فى مجالات علم اللغة العربية وعلوم الدين الإسلامى والتراث والتاريخ والجغرافيا والعلوم والرياضيات من المجالات النظرية البحتة التى أسرفت فيها مدارس كثيرة فى عالمنا العربى ، وأهملت إلى حد كبير الجوانب العملية ، وتحولت الدراسة إلى الصورة التى يغلب عليها الطابع اللفظى ، وأدى ذلك إلى ثلاثية الإلقاء والحفظ والاسترجاع ، وشيوع ثقافة الذاكرة وآلية الإبداع ، وأمسى الكتاب هو المصدر الوحيد للمعرفة ، واقتصر دور المعلم على نقل المعلومات لا نقد المعلومات ، ودور المتعلم على الحفظ والاستظهار والتلقى ، وأصبح التعليم للامتحانات لا للحياة .

إن الثقافة بمفهومها الواسع تتضمن بالإضافة إلى الجوانب المعرفية العادات والتقاليد والميول والاتجاهات والقيم والمهارات وجميع الجوانب العملية والأدائية والتطبيقية فى الحياة من أمور مادية ومعنوية ، إضافة إلى المبتكرات والتجديدات الحديثة . ومن هنا فإن المناهج التعليمية تسعى إلى تنمية قدرات المتعلم الابتكارية وتقوية إرادته وسيطرته على نفسه وتنمية مهاراته فى أداء الأعمال بإتقان . إن لسرعة انتشار الثقافة وما تؤديه وسائل الإعلام والسماوات المفتوحة والشبكة العنكبوتية من تدفق المعلومات والمفاهيم والقيم والسلوكيات – أثرين ، أولهما إيجابى يتمثل فى الانتفاع بهذه الثقافات والانفتاح عليها ، وثانيهما سلبى يتمثل فى سطوة وسائل الدعاية وأساليب الإعلان الحديثة التى تلاحق الناس أينما كانوا تحقيقا لمصالح خاصة ، لذلك ينبغى أن تعمل المناهج الدراسية على تسليح المتعلمين بالتفكير

العلمى والناقد الذى يجعلهم قادرين على التمييز بين المفيد وغير المفيد لأبناء الأمة العربية . كما أنه على المناهج أن تأخذ بمبدأ الترابط والتكامل والوحدة ؛ حتى تقترب المدرسة فى أسلوبها من الحياة .

إن الثقافة متغيرة ودائمة التغير ويتطلب ذلك من المناهج الدراسية مسايرتها لما يطرأ على الثقافة من تغير ؛ حتى لا يكون المنهج عاملا من عوامل الجمود ، كما يتطلب مساعدة التلاميذ على تكوين اتجاهات مناسبة نحو التطور ، وأن يكونوا هم أنفسهم من عوامل التطوير ، وأن يزنوا كل جديد بميزان العقل والقيم الأصيلة محافظة على هويتنا وتراثنا وانتفاعا بالقيم والمفاهيم الجديدة . ومن ناحية أخرى فإنه يرتبط بالسياق الحالى ظهور فكرة المنهج الخفى حيث يتعلم التلاميذ الكثير من القيم والاتجاهات والممارسات الاجتماعية خلال الحياة المدرسية والتفاعل مع زملائهم ومعلميهم ، دون أن يكون ذلك واردا فى أهداف المنهج الرسمى ، بل قد يكون بعض ما يتعلمه التلاميذ فى هذا الإطار واردا من معتقدات المعلمين وقيادات المدرسة ، وقد يكون متعارضا مع القيم الاجتماعية المعلنة . وهنا لابد من إعطاء عناية خاصة فى المناهج إلى نقد التراث الثقافى . كما أنه لابد أن نتناول بصورة جدلية تفاعل الطلاب وردود فعلهم إزاء القيم والاتجاهات وأساليب الحياة التى تدعو إليها المدرسة .

إن الواقع الثقافى المعاصر يشير إلى أننا نعيش بفضل وسائل الاتصالات الحديثة والسريعة فى قرية كونية مسامية الجدران ، وأن الأحداث والأفكار والمعتقدات المختلفة أصبحت تؤثر على جميع أنحاء هذا العالم الصغير ، وتتمثل المدخلات العامة للثقافة الإنسانية فى مبادئ حقوق الإنسان ، حق الإنسان فى أن يكون له آراؤه ومعتقداته ، والمساواة بين جميع أفراد الدولة بغض النظر عن اختلافهم فى الجنس أو اللون أو العقيدة ، كما تتمثل فى تنظيم العلاقات بين الدول حيث احترام سيادة هذه الدول وحقها فى إقامة أنظمتها وحل المشكلات بين الدول

بالطرق السلمية وشجب العدوان والاحتلال العسكرى ، كما تتمثل المدخلات الثقافية الإنسانية فى تعدد المعتقدات والتيارات الفكرية ، وتعقد طبيعة العلاقات الاقتصادية والسياسية والثقافية بين دول العالم ، ثم التقدم العلمى والتكنولوجى المتسارع ودخول العالم عصر المعلومات والهندسة الوراثية .

وأهم ما يميز التقدم التكنولوجى التحام النظرية والتطبيق ، والنمو المتسارع للمعرفة الإنسانية ، ووحدة المعرفة الإنسانية ، واتساع مجالات تأثير التقدم العلمى والتكنولوجى ثم نشأة مشكلات بيئية . وتجدر الإشارة إلى بعض الاعتبارات الملقاة على عاتق المناهج الدراسية ، وهى : إظهار الدور الحضارى للدول العربية فى الدفاع عن القضايا العربية والإسلامية وفى إثراء الثقافة العربية ، والتوعية بالأنظمة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فى الأقطار العربية ، والتفاوت الاقتصادى بينها نتيجة للاكتشافات البترولية ، والتفاوت الحضارى الكبير بين الدول العربية والدول المتقدمة ، وتضمين المنهج للجوانب المعرفية اللازمة لفهم الثقافات الإنسانية والعربية ، وأن يقوم التلاميذ ببعض الممارسات الأساسية ، مثل : الديمقراطية ، واحترام الرأى المعارض ، والنظرة المتساوية إلى جميع الناس بغض النظر عن عقيدتهم أو لونهم أو جنسهم ، وتشجيع التفكير الموضوعى الناقد ، والتعلم الذاتى . كما يجب أن تتنوع المناهج لتشمل الجوانب الأساسية فى مجالات المعرفة المختلفة ، وأن تتكامل فيما بينها ، والتركيز على المبادئ والمفاهيم الأساسية فى العلم ، وتحليل المشكلات البيئية وتكوين اتجاهات وعادات سلوكية مناسبة .

والمناهج الدراسية مطالبة بتعريف التلاميذ عناصر البيئة المحيطة بالمتعلم ، ومصادر الثروة الطبيعية ، ومعالم البيئة المحلية ، وتوسيع دائرة البيئة أمام المتعلم حسب نضجه وقدراته وحاجاته ، وتوعيته بأهمية ذلك وكيفية الإفادة منها ، وحسن استثمارها . كذلك تزويد المتعلم بقدر أساسى ومناسب من العادات والمعتقدات والتقاليد والاتجاهات المرغوبة والقيم الروحية ، وأساليب تفكير علمى ، وأنماط

جيدة للسلوك الاجتماعى وللتفاعل مع من يحيطون بـه ، وأسـاليب كـسب الـرزق ومعارف وخبرات وتطبيقاتها .

وهناك مسألة خلافية حول علاقة المنهج بثقافة المجتمع ، والدور الذى يؤديـه حيال تراث المجتمع .. هناك فريق يـرى أن الهـدف الأساسـى للمـنهج هـو تيـسير وتبسيط التراث الثقافى للمجتمع وللجنس البشرى وتقديمه للمتعلمين والمحافظـة عليه . وينحصر دور المنهج هنـا فى تزويـد المتعلمـين بالحقـائق والمعـارف المرتبطـة بتاريخ الإنسانية ، وإتقان المواد الدراسية التـى تـسهم فى فهـم الإنـسان ومعتقداتـه ومكانته فى العالم ، وفهم مبادئ وأهداف وفلسفة الدول التى ينتمون إليها .

وهذا الاتجاه الأول يعنى أن المتعلمين الذين يربيهم المنهج على أسـاس التـزود بالتراث الثقافى فحسب لن يستطيعوا مواجهة المواقـف العمليـة فى المجتمـع الـذى يعيـشون فيـه ، وأن المعـارف والمعلومـات التـى اكتـسبوها تـصبح قليلـة الفائـدة لاستخدامها فى الحياة ، بل إنها تـصبح نـادرة الاسـتخدام فى الحيـاة المـستقبلة ، لأن العلوم دائمة التغير وكل يوم يضيف الإنسان إلى معارفه القديمة معـارف جديـدة . والحق أن هذا المفهوم للمنهج وعلاقته بالثقافة يقوم على أساس المدرسـة التقليديـة التى عنيت بالتراث الثقافى المنظم والمنطقـى ، الـذى يبـدأ مـن البـسيط إلى المركـب والمعقد ، ومن المألوف إلى غير المألوف ، ومن الجزء إلى الكل ، وأن نقل التراث مـن جيل إلى جيل وحفظه كان هو الدور الذى يقوم به المنهج الدراسى .

وهناك فريق آخر يرى أن المنهج المدرسى لابد أن يكـون وظيفيـا بحيـث يمـد المتعلمين بمجموعة من الخبرات التى تحقق المطالب الحيوية واليوميـة لهـم ، وتحقـق حاجاتهم وميولهم فى الحـاضر والمـستقبل . كـما يـرون أن المـنهج يجـب أن يكـسب المتعلمين المهارات اللازمة للتعامل مـع الأنـشطة الحيويـة اليوميـة ، ولا يقـدم لهـم المعرفة بهدف المعرفة فقط ، بل المعرفة المهمة المفيدة والنافعة التى تساعدهم فى حـل مشكلاتهم الشخصية والاجتماعية .

وهذا الاتجاه الثانى يعنى بالأساس الوظيفى والنفعى ، الذى فى ضوئه يقدم المنهج خبراته إلى المتعلمين . غير أنه يحرم صغار المتعلمين من المعارف السابقة التى تربطهم بتراث بلادهم وتاريخها والتراث الثقافى للجنس البشرى ، والعلم بطبيعته تراكمى يحتاج ما سبق معرفته ليبنى عليه ويزدهر .

والحق أن المفهوم الثانى للمنهج وعلاقته بالثقافة جاء نتيجة ظهور الفلسفة الطبيعية التى جعلت المتعلم هو محور العملية التعليمية . وقد تم تخطيط المنهج على أساس حاجات المتعلم وميوله والاهتمام بخبراته الحاضرة ، مهملين التراث الثقافى بتنظيمه المنطقى والمواد الدراسية التى تعبر عن هذا التراث .

والمفهومان السابقان للمنهج وعلاقته بالثقافة والتراث يحتاجان إلى مراجعة ، فاهتمام المنهج بالتراث الثقافى وإهماله للمتعلم وحاجاته وميوله ومتطلبات نموه ومدى إفادته من هذا التراث الثقافى الذى يقدم له ، أمر يحتاج إلى مراجعة لأن التربية هدفها النمو الشامل المتكامل للمتعلم . وهذا النمو لن يتحقق بصورة مقبولة إلا بتوفير الخبرات المتنوعة التى تحقق حاجات المتعلم وميوله . والتى تعنى بالمستوى قبل المحتوى عند إعداد المناهج الدراسية ، كما أن اهتمام المنهج بنقل الثقافة لا يساعد فى تطوير المجتمع وحل مشكلاته . ومن ناحية أخرى ، فإن انصراف المنهج إلى الخبرات اللازمة لإشباع حاجات المتعلمين وميولهم وحل مشكلاتهم فيه إهمال للخبرات السابقة ، وللتراث الذى خلفه الآباء والأجداد ، والذى ييسر ويساعد فى تطوير المجتمع وتنميته . إذا الخبرة السليمة لا تقوم على الحاضر فقط ، بل تستفيد من الماضى أيضا ، وتمتد لتفيد من المستقبل ، يضاف إلى ذلك كله أن إعداد المتعلم ليتكيف مع مجتمعه يتضمن تزويده بأساليب الحياة فيه ، وبالمعارف والقيم التى تشكل ثقافته . وهذا يعنى أن الاتجاهين السابقين يتضمن كل منهما جانبا صحيحا وجانبا خطأ ، ويجب أن يؤخذ به فى تخطيط المناهج وعلاقتها بالتراث الثقافى . إن المنهج يجب أن يتضمن التعريف بالتراث الثقافى ،

وأن يتضمن أيضا مجموعة الخبرات التى تدور حول المشكلات التى تواجه المتعلمين فى حياتهم بحيث يحقق أمرين : أولهما يتناول المتعلم وحاجاته وميوله وقدراته ومتطلبات نموه ، وثانيهما يتناول النقل الثقافى واستخدام الثقافة استخداما وظيفيا .

ثانيا : اللغة العربية وثقافة عصر المعرفة :

اللغة العربية من الدين الإسلامى ، ومعرفتها وإتقانها فرض عين وواجب ، ذلك أن فهم كتاب الله وسنة رسوله الكريم فرض ، ولا يفهم إلا بالعربية ، وما لا يتم واجب إلا به فهو واجب . واللغة العربية جزء من كيان الإنسان الروحى ، وشرايين حياته بمضامين نفسية وفكرية وثقافية ، وهى وسيلته للتفاهم مع بنى جنسه ليسير على درب الرقى الإنسانى . إنها تشكل إحدى الروابط التى تيسر الاتصال والتفاهم ، ليس بما تمثله من رموز وأصوات فحسب ، بل بما تحمله من الفكر والقيم والاتجاهات ، وهى التى تجمع الناس على صعيد واحد . وهى رابطة جمع لاتشتت ، ودرع يحصن فيما يحصن الناطقين بها ضد خضم متلاطم تبدو فيه العولمة تيارا جارفا يسعى لإذابة الثقافات فى مجراها لتبقى اللغة العربية كيانا تتأسس عليه وحدتنا العربية حيث لم تشفع لها مقومات أخرى . اللغة العربية تلازم مولد الطفل العربى ، وتشب معه ، وتمتد إلى أعماق كيانه ، لتجعل من الأمة الناطقة بها كلا متراصا خاضعا لقوانينها لتصبح الرابطة الوحيدة الحقيقية بين عالم الأجسام وعالم الأذهان .

اللغة العربية هى العمود الفقارى للهوية الوطنية العربية الإسلامية ، والاعتزاز بها ناهيك عن أن استخدامها يكسبنا العزة والوحدة والشعور بالأمة الواحدة ، إنها ليست انتسابا بل اكتسابا ، علينا أن نتحدث بها أمام أبنائنا وبناتنا بطلاقة وحب حتى يتعلموها بالمحاكاة والتقليد ، وحتى تنساب على ألسنتهم ، فيتسع معجمهم اللغوى ، نحن مدعوون فى عصر العولمة إلى أن نحصن أنفسنا

ونحصن أبناءنا العرب باستخدام لغتهم والاعتزاز بميراثهم وتراثهم وحضارتهم وتاريخهم ، الذى يزخر بالشعر والأمثال والحكم والمأثورات والفكر المبدع ، بل إن قراءة القرآن واستخدام أسلوب القرآن يكون شخصياتنا ويصقل إبداعاتنا ويحفظ لغتنا الجميلة فصحى ميسرة على ألسنتنا وأقلامنا .

إن لغتنا العربية تستحق منا أن نسمو بها ونعتز لعوامل روحية وتاريخية وتراثية. وهى لغة متجددة متطورة ، استوعبت كتاب الله وعلوم الدنيا وفلسفتها ، وكانت سفينة الأمان لعلوم وآداب وفنون قديمة حفظتها من الضياع وأثرتها بكل جديد .

وهى لغة الاشتقاق من خصائصها المميزة لها ، واكتسبت بذلك المرونة والمتعة فى آن واستيعاب معطيات التحديث الحضارى . ومن خصائصها أن بنيتها لا تحتاج إلى فعل الكينونة ، وتتصف بالإيجاز والدقة والمنطقية ، وأن بها علاقة بين الصوت والمعنى وأن لحروف العربية إيماءات ، وأن كلماتها تأسر القلوب ، كما أن اللغة مظهر من مظاهر استقلال الشخصية القومية العربية .

إن الإنسان كلما كان متمكنا من استخدام اللغة عارفا بأساليبها وسننها كان أقدر على التعبير عن مشاعره وخبراته ، وأقوى على إفهام الآخرين مراده ومراميه . ويبلغ الإنسان الذروة فى فن القول حين يتكلم بلغته الأم التى بدأ تعلمها فى مدارج طفولته : سمعها وحذقها وقرأ بها وكتب . واللغة العربية هى المقوم الرئيس للوجود العربى ، وأقوى الروابط التى تجمع أبناء الأمة العربية وهى سبيل وحدتهم، والإصرار على تعلمها واستخدامها إصرار على إثبات الوجود العربى ، وعلى تيسير الوحدة والتضامن ، ويتم ذلك بالمحافظة على اللغة العربية واستخدامها فى مجالات الحياة ومناشطها ، فذلك هو الطريق إلى وحدة الشعور ووحدة الفكر توطئة للوحدة السياسية . إنها لغة عالمية لم تعد محصورة فى حدود جغرافية ضيقة ، بل امتدت إلى الأمم الإفريقية والآسيوية ، وفى أوربا وأمريكا ، هناك من يتحدثون

بها ويدرسونها ويؤلفون بها . هى لغة تملك التطور بالاشتقاق والمجاز والقياس والنحت والتعريب مواكبة لمستحدثات العصر والتعبير عنها فى سهولة ويسر . وعليه يتوجب أن يقوم برنامج دراسة العربية تعليمها وتعلمها فى مدارسنا على أن :

- تعليمها لا يكون بوصفها ، بل بممارستها والتحدث بها ، والتدريب على صيغها وأنماطها ومستوياتها شفويا وتحريريا .
- اكتسابها يتم من مدخل كلى ، لا تقسم إلى نحو وصرف وأدب وقراءة وخط وإملاء وتعبير ، بل إلى استماع وتحدث وقراءة وكتابة .
- اكتسابها لا يتم من خلال استيعاب واستظهار حقائق وأحكام يلقنها المعلم للمتعلم لحفظها وتكرارها ، بل يتم على أن اللغة مجموعة من المهارات ، وأن المعرفة وحدها لا تؤدى إلى اكتسابها ، إذ لابد من ممارستها ممارسة تبنى على فهم والإدراك للعلاقات والتكرار ، المقرون بالتوجيه والتعزيز والقدوة كى تكون المحاكاة دقيقة صحيحة .
- الأنشطة تتخذ من التناقش الجماعى والمناظرة والمحاورة والمواقف الحقيقية للتعلم شكلا لها شريطة التحادث بالفصحى ، ومراعاة الطلاقة وفق أنساق فكرية وتراكيب لغوية فصيحة .
- ربط المتعلمين بالمكتبة لإثارة شغفهم إلى مزيد من الاطلاع والقراءة المتنوعة، وليصبح الكتاب المدرسى أحد مصادر التعلم لا كل مصادر التعلم ولتعمق الموضوعات المقررة تثرى وتتسع وتتنوع مفرداتها وأفكارها ولتنمو الميول القرائية وتنمو الثروة اللغوية وتنمو التراكيب والأنماط والبصمات اللغوية من خلال نماذج يحذون حذوها عندما ينتجون اللغة الفصحى . إنهم يستخدمون العربية عن طريق اختزان خبرات الآخرين وتمثل أفكارهم وأساليبهم .
- تعليم اللغة يتم من خلال ممارسة اللغة من خلال النص اللغوى الجميل ، بإعطاء النص أبعادا صوتية ، وتمثل المعنى ، ونطق الحروف من مخارجها ونقده وتقويمه

لغويا وعلميا والحكم على فكر الكاتب وثقافته وطرائق العرض وأساليب التأليف .

- يتمكن المتعلمون من التعبير عن أفكارهم والقضايا المثارة أمامهم كتابة وبشكل سليم ، من حيث بناء الجملة والفقرة ثم النص المتكامل ، والتدريب على الكتابات الوظيفية والإبداعية وفق معايير الكتابة .
- يدرب المتعلم على استكشاف مواطن الجمال فى اللغة بعرض نماذج نثرية وشعرية وسير ذاتية وقصص ونصوص مسرحية ، وحيث يمر المتعلم بمراحل الفهم والتحليل والتقويم للعمل الأدبى ، واستخدام اللغة المجازية والأساليب الراقية التى يمكن للمتعلم تمثلها فى تعبيره ومحاكاتها .
- يوظف المتعلم ما اكتسبه من مهارات لغوية والتعامل مع مصادر المعلومات لينجز بحثا وفق معايير وخطوات منهجية . ويتطلب ذلك التمكن من مهارات أخرى : أن يقتبس ويعلق ويمهد ويناقش الأفكار ويرتبها ويعرض بحثه شفويا أمام زملائه شارحا ومناقشا ومعلقا ومفسرا وناقدا .. مؤديا كل ذلك بلغة سليمة وفصيحة .
- يتعلم المتعلم اللغة باللغة الأمر الذى يتطلب أنشطة لممارسة اللغة ، والتواجد ضمن بيئة لغوية يكونون فيها الوسيلة والغاية . وأهم هذه الفعاليات : النادى الأدبى ، والأمسيات والمسابقات ، والتعلم بالممارسة .

إن تعليم اللغة الفصحى وتعلمها يتطلب ربط برنامج تعلمها فى المدرسة بوسائل الاتصال الجماهيرى حيث تخصص حصة أسبوعية تحت عنوان : (قراءات صحفية) يحضر فيها التلاميذ الصحف المحلية ، ثم يقومون فى كل مرة بنشاط يختلف عن سابقه مثل :

- التعليق على خبر صحفى ، وإبداء الرأى فى مضمونه تأييدا أو معارضة .

- قراءة بعض المقالات الصحفية بهدف تحليل أساليب إنشائها ، والتمييز بين مستوياتها وكلماتها المفتاحية ، ومصطلحاتها كتابة أو شفاهة .
- تصنيف مواد الصحيفة إلى مجالات للتعرف على الأنماط والأساليب اللغوية فى مواقف حياتية مختلفة .
- رصد اهتمامات الصحف اليومية ، والمقارنة بين اهتمامات صحيفة وأخرى من حيث أبوابها وتحقيقاتها ومكوناتها .

وتحديث تعليم اللغة العربية يتطلب فوق ذلك كله استخدام وسائل تعليمية وتقنيات مثل : التلفاز والمسجل والحاسوب لتنويع المثيرات ، وتقديم المواد اللغوية عبر التقنيات الحديثة مما يجعل دراسة اللغة العربية دراسة محببة إلى نفوس التلاميذ .

وإذا كان تعليم اللغة العربية فى المدارس يحاول أن يقدم العربية الفصحى فى صورة جديدة محببة وشائقة إلى تلاميذها ، فليس معنى هذا أنه يستطيع وحده أن يقوم بهذه المهمة الشاقة ، إذ لابد أن تتضافر الجهود الداعمة لهذا الاتجاه من مؤسسات المجتمع الثقافية ، فعلى هذه المؤسسات يقع عبء كبير فى المشروع النهضوى باللغة أى مشروع التنمية اللغوية .

تعليم العربية الفصحى وتعلمها ليس مهمة المدرسة وحدها ، ذلك أن الصحف اليومية لها دور فى هذا المجال ، وما يدور فى حياتنا من إعلانات لغتها بعيدة عن الفصحى والأخطاء اللغوية الشائعة على ألسنة الكبار . والانتهاكات التى ترتكب بحق القواعد النحوية والإملائية فى وسائل الإعلام المسموعة والمرئية ، وتخريب الفصحى بوعى أو دون وعى فى أسماء المحالات التجارية التى تبدو فيها الفصحى أشبه بجزيرة وسط طوفان من اللغات الأجنبية .. كل ذلك يضعف من جهود المدرسة فى تعليم اللغة الفصحى وتعلمها .

إن تشكيل مناخ لغوى فى إطار من المعاصرة والدقة تشارك فيه وسائل الاتصال الجماهيرى والمؤسسات المجتمعية يمكن أن يساهم بالنهوض بالمستوى

اللغوى العام ، وأن يحقق ما ينشده من ذلك إذا ما خطط لهذا الهدف تخطيطا جيدا ، ويمكن أن يتم ذلك عن طريق :

- تقوم الإذاعة بدور بالغ الأهمية حين تقدم اللغة الفصحى الميسرة منطوقة مسموعة عبر أداء رفيع المستوى لمذيعين ومقدمين أكفاء .
- يقدم التلفاز الرسائل الإعلامية بعناصرها اللغوية وغير اللغوية . إن تعبيرات الوجه والحركة والإيماءات ونغمة الصوت والوضع الذى يتخذه المتكلم والأشياء المادية المشاهدة فى الموقف من عناصر غير لغوية ، بيد أن دورها كبير فى إيضاح العناصر اللغوية .
- تجريم كل مؤسسة مجتمعية تستخدم غير العربية الفصحى فى الإعلان عن ماهيتها أو الدعوة لسلع من سلعها وإلزامها باستخدام الفصحى الميسرة .

إن اللغة العربية ضرب من ضروب السلوك ، وليست مجرد معرفة وسائل الاتصال التى تؤثر فى تكوين هذا السلوك اللغوى تأثيرا بعيدا ، ومن شأن تكرار السلوك اللغوى السليم الذى يقدم عبر وسائل الإعلام والاتصال أن يحدث ترسيخا عند الجمهور يفوق تأثير المدرسة ، وهنا لابد من استخدام فصحى العصر فى الأغانى والمسلسلات الترفيهية والدرامية التى تحمل مضامين اجتماعية أو ثقافية أو فنية أو تاريخية ، وكذلك فى التعليقات والمقابلات وأفلام الكبار والصغار والإعلانات والتعليقات الرياضية وغير الرياضية ، واستخدام الفصحى فى كل هذا العطاء الذى يكون مع المدرسة اتجاها داعما للسياسة اللغوية المنشودة من أجل الحفاظ على لغتنا العربية الفصحى ، التى تشكل هويتنا ووحدتنا ومكانتنا المنشودة فى عصر العولمة .

إن اللغة العربية وسيلة الإنسان الأساسية للتعبير عن أفكاره ومشاعره وعواطفه ، وهى نظام ومستودع تراث الأمة وأداة التواصل . ونحن لا نولد عارفين للغة استعمالا وفهما ، فنحن مجبولون على اكتسابها . والسلوك اللغوى مهارة

هى من التعقيد بحيث لا يستساغ أن يكتسبها الطفل فى مرحلة وجيزة . إن لدى الإنسان استعدادا طبيعيا لاكتساب المهارة اللغوية وميلا خلقيا يدفعه إلى اكتساب اللغة . والتربية الحديثة انتقلت من التحفيظ والتسميع إلى التمهير أى إكساب المتعلمين المهارات . والمهارة هى الأداء المتقن القائم على الفهم والدقة واختصار الوقت والجهد . وهذا الفكر الجديد المطروح على ساحة الثقافة يتطلب أن تعمل مدارسنا فى إطار تعليم لغتنا العربية على تأكيد الاعتبارات التالية :

- مفهوم اللغة لم يعد مقتصرا على الجانبين الصوتى والمكتوب ، وإنما تجاوزه إلى ضروب التعبير كلها بإكساب المتعلم المهارات اللغوية . كما أن اكتساب اللغة لم يعد مقتصرا على تزويد المتعلم بمجموعة من الحقائق والأحكام ، ولا أصبح ينظر إلى اكتساب اللغة كما ينظر إلى اكتساب المهارات والعادات ، بل الأخذ فى الاعتبار أن ذهن المتعلم ليس صفحة بيضاء ينقش عليها المعلم ما يريد حتى إذا واجهه موقف ما ، عاد إلى ذلك المخزون فأخذ منه ما يساعده على مواجهة الموقف الجديد ، وأن العقل مزود بآلية هى المقدرة اللغوية أو الإبداعية اللغوية أو الكفاية اللغوية . وهذه الآلية تساعد المتعلم على أن يبتكر ويصوغ جملا جديدة ، ويحكم على الجمل الجديدة من حيث الصواب والخطأ حتى لو لم يكن المتعلم قد مر بها من قبل .

- التعليم اللغوى عملية تمهير ، وأن البدء فى تدريس اللغة يجعل المحادثة والاستماع فى المقدمة بدلا من البدء بتدريس القراءة والكتابة ، وتحقيق التكامل بين المهارات اللغوية إرسالا واستقبالا لصحة التعبير وغناه .

- اعتماد المفهوم النظامى فى تدريس اللغة العربية تصميما وتخطيطا وتنفيذا وتقويما وأهدافا ومادة ووسائل ومناشط وأدوات على أن تكون ثمة مرونة فى اختيار الطرائق باختلاف الأهداف .

- اعتماد أسلوب الانتقاء فى التدريس ، والعزوف عن التحيز لطريقة معينة على أنها هى الأفضل ، فهذا أسلوب قد تجاوزه العصر ، والأسلوب المفيد هو أن ننتقى من الطرائق كلها إيجابياتها ونطرح سلبياتها .

- اعتماد التعليم المصغر والتغذية الراجعة ، والتعلم الذاتى مواكبة لروح العصر واستجابة لمتطلباته ، وفى استثارة الدوافع وتوافر الاستعدادات ، وفى اعتماد الهيكلية البنيوية فى التدريس .

- ولابد أن نشير إلى النفعية الاجتماعية والوظيفية ، وفى اختيار طريقة القوالب فى تدريس اللغات الحية لأبنائها ولغير أبنائها ، مع الإشارة إلى أن المعلم هو الذى يستخدم الطريقة وينوع فيها بحسب المواقف . والمعلم الذى يقولب نفسه فى إطار طريقة واحدة يلتزم بها فى دروسه كلها محكوم عليه بالإخفاق ، ذلك أن الطريقة لا تصنع المعلم ، بل المعلم هو الأساس فى كل تطور تربوى .

إن التطور الحادث فى ميدان طرائق تدريس اللغات الحية يفرض علينا الارتقاء بتعليم لغة القرآن الكريم وتعلمها ، ووضع تعليمها وتعلمها فى إطار المناقشة العالمية حتى نحافظ على هويتنا وقوميتنا سعيا نحو وحدتنا التى هى أملنا فى البقاء والنماء . وهذا الأمر يقتضى :

1 – العمل على تكوين المهارات اللغوية والعادات اللغوية الصحيحة . وتكوين المهارة اللغوية تعنى الأداء المتقن فى الوقت والجهد القائم على الفهم . يساعد على ذلك الممارسة والتكرار ، وذلك فى مواقف حية ومتنوعة وبصورة طبيعية ، والممارسة تقوم على الفهم وإدراك العلاقات والنتائج حتى لا تصبح آلية لا تساعد على مواجهة المواقف الجديدة وحسن التصرف فيها . وللتوجيه والقدوة الحسنة والتعزيز دور كبير فى اكتساب المهارات اللغوية . إن الأمر لابد أن يمتد إلى تكوين العادات اللغوية أيضا . والعادة تتكون نتيجة الإعادة المتكررة لها من المهارات .

2 – اللجوء منذ بداية تعليم اللغة العربية إلى المحادثة التى تدرب على تعويد الأذن الاستماع إلى أصوات اللغة والتمييز بينها وتذليل صعوبات النطق ، وتدريس المحادثة والاستماع يزيل الخوف ويكسر حدة الانطواء ، فضلا عن أن مهارة المحادثة هى الأكثر شيوعا واستعمالا فى مواقف الحياة . والبدء بالمحادثة يساير طبيعة مراحل الطفولة حيث إن الطفل يفهم الألفاظ ثم ينطقها ويأتى الكلام ثانيا ، والقراءة والكتابة ثالثا ، واللغة المنطوقة تسبق ما عداها تبعا لحقائق النمو اللغوى . وعليه لابد من إسماع المتعلم البنى اللغوية فى أصواتها وتراكيبها ومعرفة مدلولاتها أولا ، ثم تكرار هذه البنى ثانيا، وقراءتها ثالثا ، وتثبيتها بالكتابة رابعا .

3 – تدريس اللغة فى ثنايا النصوص والقراءة والوحدات المتكاملة ، التى يتم من خلالها القراءة والتعبير والإملاء والقواعد مسايرة للطريقة الطبيعية فى إدراك الحقائق فى الانتقال من الكل إلى الجزء ، ومعالجة النص على أنه وحدة متكاملة تجدد الحيوية عند المتعلم ، وتبعث فيه النشاط على أنه يوطد العلاقة بين مختلف فروع اللغة ، ناهيك عن الارتباط بين مهارات الإرسال ومهارات الاستقبال ارتباطا وثيقا ، وأن الاستماع الجيد أساس الحديث والقراءة والكتابة الجيدة .

4 – الأخذ بفكرة النظام فى التدريس، حيث إن التربية الحديثة محورها المتعلم وميوله وحاجاته ومتطلبات المجتمع ومطالب العصر والمستقبل ، نسقا واحدا متصلا بالأهداف والمتعلمين ووسائل التعليم وأساليب التقويم وطبيعة اللغة العربية ومصادر التعلم ، مع التركيز على التدريبات والنصوص الوظيفية المستمدة من البيئة والهادفة إلى إكساب المتعلم مهارات الاتصال اللغوى . وهذا معناه أن تعليم اللغة العربية ينحو منحى تكامليا فى ضوء النظرة المنظومية بين عناصر عملية التدريس .

5 – الانتقاء من بين طرائق التدريس ، حيث يؤخذ من كل طريقة ما هو ناجح فيها وحيث لا يوجد أسلوب وحيد فى التدريس ، لأن هذا الأسلوب يتنوع بتنوع موضوع الدرس وأهدافه والمواد التى يراد تنميتها . وهنا سقط مفهوم الطريقة الفضلى والأسلوب الأفضل إذا فهم على إطلاقه دون تحديد لجانب مفاضلة وجانب التميز .

6 – الأخذ بالتعليم المصغر والتغذية الراجعة ، ومعنى ذلك تفتيت الخبرة التعليمية إلى عدة مواقف ، ثم يتم التقويم بعد كل موقف لمعرفة النقاط الإيجابية والنقاط السلبية ، ويتم تعزيز الإيجابيات وعلاج السلبيات بطريقة التغذية الراجعة الفورية . وهذا التدريس الواقعى يستغرق ما بين عشر دقائق وثلاثين دقيقة ، ولا يزيد عدد المتعلمين فيه عن عشرة ، وعناصر الدرس هى : الأهداف والمحتوى وطرق التدريس والتقويم . وفيه يقل حديث المعلم ، وترتفع مستويات الأسئلة ، ويزداد التفاعل والاستجابات والتعليم المصغر مع التغذية الراجعة الفورية تحدث تغيرات ذات دلالة فى تهيئة مواقف التعلم وتحديد كفاءة الأسئلة ، ومدى انتباه المتعلمين وإثارة دوافعهم ، والتحكم فى المشاركة وتعرف نتائج الأعمال واستخدام الثواب والعقاب وتبنى السلوك المنشود وتصويب الأخطاء فوريا .

7 – تبنى التعلم الذاتى وامتلاك مهاراته لمواكبة العصر المتطور والذى يتطلب أن يستمر المتعلم فى تعليم نفسه ، والجهود نابعة من ذاته ويقتصر دور المعلم على تهيئة الظروف المناسبة لنمو المتعلم ورعايته ، فينشط المتعلم ويفكر ويبتكر . وهنا تصبح المختبرات اللغوية والتسجيلات مهمة ؛ لأنها تعزز التعلم الذاتى لديه ، وتدفعه إلى مزيد من التعلم الذاتى وإنتاج اللغة . ومعنى ذلك أن نشاط المتعلم هو الأساس الذى ينبغى أن تقوم عليه كل دراسة ، فهذا النشاط يكسبه المعرفة والميول والقيم والمهارات المنشودة .

8 – استثارة الدوافع وتنشيط الاستعدادات ، حيث إن العملية التعليمية تقوم على هذه وتلك وحيث إن الدافعية شرط من شروط التعلم ، ولا تعلم من غير دافع معين ، والموقف التعليمى دينامى فيه المتعلم نشط ومتفاعل مع مكونات الموقف الدراسى حتى يحدث التغير المطلوب . الدافعية تنشط سلوك المتعلم ، وتوجه سلوكه ، وتعزز نمط السلوك المسئول فى الحصول على المكافأة . والمتعلم تؤثر فى استعداداته عدة عوامل ، أهمها : الوسط العائلى ، ومستوى النضج الجسمى ، واللغوى ، ومستوى الذكاء ، وأنواع الذكاءات.

إن ما يجب على المدارس الأخذ به للارتقاء بتعليم اللغة العربية الفصحى واكتساب المتعلمين للمهارات اللغوية يتحدد فى تفعيل الأفكار التنويرية التالية :

– الممارسة والتكرار لازمة لاكتساب العربية الفصحى ومهاراتها ، وعلى أن تتسم الممارسة بصورة طبيعية فى مواقف حياتية متنوعة ، بدلا من التكرار الآلى الذى يكرس ثقافة الإيداع فى مقابل ثقافة الإبداع .

– الفهم وإدراك العلاقات والنتائج ، إذ دون الفهم تصبح المهارة آلية لا تساعد المتعلم على مواجهة المواقف اللغوية الجديدة .

– التوجيه والإرشاد يعين على اكتساب المهارة اللغوية وتوجيه أنظار المتعلمين إلى مواطن الامتياز ومواطن الضعف وأفضل أساليب الأداء اللغوى .

– القدوة الحسنة ، حيث إن إتقان المهارات فى أثناء الأداء اللغوى ، من خلال المختبرات اللغوية والأداء الأسوة من المعلم أو الطلاب المتميزين .

– التشجيع والإثابة الفورية تؤدى إلى النجاح وإلى تعزيز التعلم وإلى تحسين ملموس فى أداء المهارة .

ويمكن وضع خمسة قوانين لاكتساب مهارات اللغة العربية الفصحى وهى : قانون التمرين والاستعداد حيث تتوقف نوعية التعلم على تكرار التمرين ، شريطة

أن يكون المتعلم راغبا فى التعلم . ثم قانون درجة المعرفة ، حيث إن معرفة المحتوى والتعبير معرفة جيدة يصبح التعلم أسرع وأفضل . ثم قانون التصاعد الهندسى للاحتفاظ ، حيث تزداد مدة الاحتفاظ مرتين أو أكثر بالنسبة إلى المدة التى تسبق آخر تمرين ، ثم قانون التواتر فى ظل ظروف متشابهة حيث تؤدى الخبرات الجزئية إلى تعلم جزئى ، ثم قانون الدافعية ، حيث تؤدى الرغبة فى التواصل داخل الدرس إلى ازدياد الدافعية ، والمهارة تختلف عن العادة اللغوية لأن المهارة تتسم بالوعى والعادة ليست كذلك ، فهى فعل منفذ من متعلم ما دون مشارك الوعى فى تنفيذه حيث قام المتعلم بأدائه مرارا فى الماضى .

إن حسن تعليم اللغة العربية واجب قومى وإنسانى وإسلامى وهو أوجب على مؤسساتنا التعليمية ، وفرض عين على كل معلم فى كل مرحلة من مراحل التعليم سواء كان مختصا فى تعليم العربية أو مختصا فى تدريس مادة دراسية أخرى ، حيث إن المحافظة على لغتنا الفصحى محافظة على بقاء هويتنا العربية الإسلامية .

الإنسان كائن لغوى وهو أيضا كائن مفكر ولأنه كذلك فهو لا يكف طوال حياته عن أن يكون مفكرا ، حتى لكأن اللغة والفكر هما شرطان لإنسانيته وهما فى الوقت نفسه شرطا وجوده ودوامه وبقائه واللغة العربية عند العرب لغويين وفلاسفة ظاهرة إنسانية ذهنية نفسية اجتماعية . واللغة العربية لب النشاط العقلى الإنسانى ، وما يدفع الإنسان للكلام هو رغبته فى التواصل ، وهذا التواصل لا يتم خلوا من المعنى لدى المتعلم .

إن تعليم اللغة العربية يتم فى ظل المنظور المعرفى باعتبار أن تعليمها عملية تفكير تنطوى على استخدام المعرفة السابقة لدى المتعلم ، واستخدام استراتيجيات تفكير خاصة لفهم الأفكار فى الموقف التعليمى الجديد ، ومن ثم ربط المعرفة الجديدة بالمعرفة السابقة وإدماجها فى البيئة المعرفية للمتعلم بحيث يصبح تعلم

اللغة العربية ذا معنى عند المتعلم . كما أن تعلم اللغة العربية وتعليمها فى مدارسنا عملية تلعب فيها العمليات الذهنية دورا مؤثرا وفاعلا ، وهى عملية نشيطة ينتج فيها المتعلم اللغة الفصحى الميسرة . وهو ليس مجرد متلق لنماذج لغوية تفرض عليه من خارجه انطلاقا من اعتقاد قديم بأن عقله صفحة بيضاء ، بل من مفهوم معرفى جديد يؤكد أن المتعلم إنسان مبدع وواع ولا تقتصر مهمته على استدعاء النماذج اللغوية ، التى سبق أن خزنت لديه عندما يتوافر المقام المناسب ، ذلك أن المعنى والمفكر فى تعليم اللغة العربية وتعلمها قضية أساسية ورئيسه يكونه المتعلم مما يستمع إليه أو يقرأه أو يتحدث به . إن تعليم اللغة العربية وتعلمها فى مصر سابق لا مسبوق فى الأخذ بالاتجاه الذى تتبناه المدرسة المعرفية والتى تركز على سيكولوچية التفكير ، ومشكلات المعرفة ، وحل المشكلات ، والإدراك والشخصية والجوانب الاجتماعية فى التعلم والتكيف والموازنة . وهذا كله يشكل منحنى جديدا فى تعليم العربية لما تأخذ به حتى الآن دول عربية كثيرة حيث ركزت على مفاهيم المدرسة السلوكية ولا تزال تأخذ بالنظريات الترابطية الميكانيكية السلوكية من قوانين المثير والاستجابة والتعزيز والأثر والثواب والعقاب والكف . ومن هنا يمكن لمتعلم اللغة العربية أن ينتج اللغة لا أن يكتفى بتمثل اللغة أو امتصاصها ، وهو هنا متعلم مفكر مبدع وناقد ومنتج .

والإبداع فى تعليم اللغة العربية وتعلمها وثيق الصلة بدروس اللغة العربية وذلك لسببين أولهما لأننا نقيم تفكير المتعلم على التخيل ونعبر باللغة عن صور متخيلة فى أذهاننا ، كما أن ما نسمعه أو نقرأه من كلمات لا يشفر داخل أذهاننا على نحو منعزل ، بل يشفر فى شكل روابط وصور ذهنية بصرية وصوتية جمالية سارة وغير سارة وهذا يؤثر بدوره فى عملية التعليم. والسبب الثانى يتغير من فرد إلى آخر تبعا للوسط الثقافى والاجتماعى والتعليمى ، الذى يحيط به فى مدارسنا وهو وسط ثرى فيه البهجة والتسامح والحرية .

إن معلم اللغة العربية الذى تخرج فى كليات اللغة العربية وأقسامها بالجامعات المصرية عليه أن يتخلى عن مفاهيم تقليدية فى تعليم اللغة العربية فاللغة ليست وعاء فارغا ، أو مرآة تعكس الواقع ، كما أن عملية تعليمها وتعلمها لا يتم فى ضوء مبدأ إشراط السلوك الملاحظ عن طريق التعزيزات المنتقاة ؛ لأن تعلم اللغة يعنى بناء مفهومات جديدة عن الأشياء وكفايته لا تقاس بمدى ما يحتفظ به المتعلم من معارف معنوية ولأن التعلم عملية بنائية نشيطة تبنى فيها المعرفة ، وتهدف إلى تحقيق فهم أشمل لبيئتنا ، وإضفاء معنى ودلالة على العالم من حولنا . وبناء اللغة لا يعنى تراكمها ، فالمتعلمون يعيدون بناء تراكيبهم اللغوية والمعرفية معا فتحل النماذج الجديدة محل الأخرى القديمة ، ولذا فإن المعرفة اللغوية القبلية شرط رئيسى لبناء المعنى، من خلال التفاعل بينها وبين معرفته الجديدة . والذى يجب أن يلتفت إليه المعلمون أن المتعلم تبعا لذلك نشيط مبادر ، يسعى لبناء المعرفة ولا يحتاج إلى التعزيز الخارجى ؛ لأنه يعزز نفسه بنفسه عن طريق مقارنة نتائج ما وصل إليه بما يتوقعه . وهنا لابد أن نتخلى عن مفهوم قديم وتقليدى يقوم على أن استخدام اللغة العربية فى التدريس الغرض منه نقل المعلومات لأن اللغة العربية ذاتها تحمل معان وأفكارا . وتعيننا على التكيف مع بيئتنا والتواصل ذى المعنى مع غيرها .

إن تعليم اللغة العربية ونحن فى غمار مسيرة تطوير التعليم عملية ينهض بها من يفترض أنه يعلم . وتتضمن تلك العملية أعمالا وإجراءات وتنظيمات يقصد بها تيسير التعلم ، وتهيئة المناخ الداعم للتعلم الجيد . ويستمد تعليم العربية وتعلمها فلسفته من المداخل التربوية المنسقة مع نظرية اللغة ، ونتائج البحث فى علم اللغة النظرى والتطبيقى ونظريات التعلم اللغوى وما يناسبها من طرائق وأساليب تتيح للمتعلم الممارسة والاستخدام اللغوى والتدريب اللغوى والمناقشة والسؤال والجواب ونقل المعلومات والأخبار والمشاعر والأحاسيس ؛ مما يؤدى إلى امتلاك المتعلم للغة العربية الفصحى الميسرة . إن آراء السلوكيين تبدت واقعا تعليميا لا نزال نعانى آثاره ليس فقط فى اللغة العربية بل فى تعلمها أيضا .

فقد أهملوا تعليم اللغة المكتوبة وعنوا بتعليم اللغة العربية الشفاهية المنطوقة ، وركزوا على لغة التحدث ولم تحظ القراءة والكتابة إلا بالنذر اليسير من الأهمية . وعنوا بالنطق الصواب وعليه أصبح دارسو اللغة كالببغاوات يكررون الجمل التى درسوها فى غير سياقها الصواب ويعجزون عن التعبير عن أفكارهم أو فهم أفكار غيرهم ، أو تكوين فكرة واضحة عما يقرأون . وهم يعلمون العربية فى تتباع خطى يبدأ بالمحاكاة ثم التعزيز ثم الممارسة وتنتهى بتكرار الاستجابة . والتعلم بذلك محكوم بالظروف التى يتم فيها ، ومن ثم فلا مراعاة للفروق الفردية ، لأنه إذا أخضع المتعلمون للظروف نفسها فإنهم سيتعلمون بطريقة متشابهة ، كما أن الاختلاف فى التعلم إنما هو فى الواقع اختلاف فى تجربة التعلم . وهذا التطبيع أو التطويع اللغوى يتمثل فى تقييم منتوجات المتعلمين اللغوية فى ضوء نموذج خاص بالإجابة يعد مسبقا ، ويعد أى اختلاف بين منتوج المتعلم والنموذج الأمثل معيارا يحكم من خلاله على إجابة المتعلم بأنها خطأ ، ويترتب عليه أن المعلمين الخصوصيين يعدون نماذج للامتحانات وكافة التوقعات المحتملة للأسئلة ، ويدربون المتعلمين على التطابق وإفراز الاستجابات المعدة سلفا كما رأوا مثيرات بعينها فى الأسئلة ، وهنا يصبح المتعلم المبدع مشاكسا وشاذا ، ويجب أن يطوع ويعود إلى الحظيرة وفق تربية القطيع لا تربية الفريق .

إن تعليم اللغة العربية يجب أن يتحول إلى توجهات علم النفس المعرفى ليصبح الهدف من التعلم هو تنمية التفكير . ذلك أن اللغة العربية فى هذه الرؤية التعليمية الجديدة ليست سوى عمليات تفكير من قبل أن تكون أصواتا ، فأهم ما فى اللغة محتواها العقلى لا الثقافى ، لأن هذا الأخير أمره هين فيكفى فيه الخزن والحفظ . أما الأول فهو اللغة كما تظهر فى تتابع الكلمات والجمل والأصوات المعبرة عن الأفكار والمجسدة للصور الذهنية الكامنة فى عقول أصحاب اللغة ممن يستعملونها شفاهة وكتابة . وتعلم العربية يعنى تعليم القواعد التى ينبغى أن يسير الكلام وفقا لها ، أى

إنه تعليم القدرة على إنتاج اللغة العربية الفصحى الميسرة ، وليس مجرد استظهار ألفاظ فارغة من كل محتوى . وتعليم العربية يجب أن يعنى بفهم المتعلمين أعراف اللغة لغة مجتمعهم بالقدر الذى يعينهم على التواصل مع الآخرين .

أضف إلى ذلك أن الفهم عن المقروء والمسموع يمثل القيمة الحقيقية لاستخدام اللغة ، فالتراكيب اللغوية لا يمكن تعلمها وبالتالى استخدامها ما لم تكن قائمة على الفهم ، والفهم يعنى قدرة المتعلم على إنتاج دلالة موازية عما قرأ أو سمع بلغته هو لا بلغة منتج النص . وهذا ما يميز المتعلم المستقل عن المتعلم المعتمد على غيره وهنا يمسى الإبداع دستورا للتعلم المعرفى .. ففى ظل اختلاف خبرات الأفراد المتعلمين ومثريات البيئة لابد وأن يختلف المنتوج اللغوى الفردى بالضرورة عن منتوجات المتعلمين الآخرين . متعلم اللغة هنا ينتبه ويدمج وينتج ويفحص ويقوم ويختبر وينفتح على الاحتمالات المتعددة ويأخذ البدائل فى الاعتبار لأن التعلم اللغوى تعلم ذو معنى يستفيد المتعلم من أخطائه ويتوصل إلى الصيغ السليمة بنفسه ، وتتاح له فرص التعبير عن نفسه المهم هنا هو تنمية دافعية المتعلمين الداخلية ؛ لأن درجات الاختبارات والتعزيزات الخارجية ممثلة فى الثواب والعقاب تجعل المتعلمين يعملون لإرضاء المعلمين والسلطات الأبوية وليس رغبة حقيقية فى تعلم اللغة العربية ، وهذا يتطلب معلما جديدا للغة العربية معلم تفكير ، ييسر حدوث التعلم ويساعد المتعلم على التمكن من أعراف مجتمعه اللغوية ؛ لأنه يمتلك قابليات شتى تمكنه من التصور والتذكر والتحليل والتصنيف والاستنتاج والتخطيط واستشراف المستقبل .

ثالثا : رؤى مستقبلية لثقافة الطفل والمناهج :

الطفولة هى المرحلة الأساسية التى تمهد لها ما بعدها من مراحل فى حياة الإنسان ، ونقطة الانطلاق فى بناء جيل قوى ، وركيزة أساسية للتنمية البشرية المنشودة ؛ مما يستوجب توفير الرعاية المتكاملة للطفل ، والتى تضمن له نموا شاملا

متكاملا ومتوازنا فى جميع جوانب شخصيته . فمستقبل العالم العربى فى مستقبل وأسلوب تثقيف أطفاله ؛ لأن الطفولة هى السنوات الذهبية التى يجب أن تستثمر لتضمن للأمة العربية أقصى استفادة ممكنة لهذا الكنز المكنون من حياة الإنسان . الأمر الذى يتطلب تثقيف الأطفال قبل السنة السادسة من العمر ، وأن تصبح رعاية الطفولة المبكرة جزءا لا يتجزأ من مسئوليات المناهج الدراسية والمدارس الحديثة للقضاء على التسرب من الدراسة .

إن تهيئة الفرص أمام التلاميذ الموهوبين لتنمية وصقل مواهبهم وقدراتهم العلمية والأدبية والثقافية والفنية وتمكينهم من الانطلاق بقدراتهم ، فى إطار نظم وبرامج تستثمر إمكاناتهم المتميزة وترعى مواهبهم . وكذلك إتاحة فرصة التعليم النظامى وغير النظامى والتأهيل بمختلف أنواعه للأطفال ذوى الاحتياجات الخاصة ، وعلى أساس استيعابهم فى النظام الذى يناسب ظروف كل منهم .

إن تدعيم ثقافة الأطفال عبر مناهجنا الدراسية تستوجب استمرار الجهود المبذولة الآن لنشر تكنولوچيا التعليم المطورة بالمدارس ، وتعبئة الجهود لدعم قدرة أطفالنا على استخدام هذه التكنولوچيا ، لتمكينهم من الخبرات والقدرات اللازمة للألفية الثالثة وللمنافسة العالمية .

إن رعاية الطفل العربى ثقافيا عبر مناهجنا الدراسية تتوجب علينا الإفادة من الدراسات العلمية فى العقد الأخير من القرن العشرين ، عقد المخ Brain Decade ، فيما يتعلق بفسيولوجيا المخ والجهاز العصبى، حيث أوضحت هذه البحوث ما يلى :

– أن للذكاء أنواعا متعددة كالذكاء المنطقى والرياضى ، واللغوى ، والتصورى والإدراكى والموسيقى والتوافقى والحركى والاجتماعى وسواها . وأنه لا يمكن الجزم بأن أحد هذه الأنواع أكثر أهمية عما سواها ، فهى تتساوى من حيث الأهمية، كما أنها تتكامل فى نموها وتتآزر . ولذلك علينا تنمية كل هذه الأنواع من الذكاء ، وألا نهمل أيا منها إذ إن ما لا نستثمره منها نفقده .

– إن مخ الطفل يتغير فسيولوجيا وعضويا نتيجة الخبرات المضافة إليه من البيئة التى يعيش فيها الطفل ويتفاعل معها ثرية بالمثيرات والمحفزات التى تستنفر ما لديه من رغبة فى حب الاستطلاع والمعرفة وتدفعه للمغامرة والتجريب ، ساعد كل ذلك على إحداث تغيرات فى مخه فتنمو بذلك مداركه ويتبلور ذكاؤه وينضج.

– أنه فى مرحلة الطفولة تتفتح نوافذ الفرص(Windows of Opportunities) لتعلم اللغات وتذوق الموسيقى والفن ونمو القدرات الحركية الدقيقة وصقل المهارات اليدوية المتميزة ، وأنه ما لم يتم استثمار المرحلة العمرية المناسبة لتعلم الخبرات التى تتلاءم وطبيعة هذه المرحلة ، يصبح من الصعب اكتساب هذه الخبرات فى مرحلة عمرية أخرى .

– أنه نظرا لما أفرزته ولا تزال الهندسة الوراثية وبحوث الدماغ وما تسببه الألعاب الإلكترونية من استثارة عقلية فسوف يساعد ذلك فى وصول بعض الأطفال إلى المستقبل مبكرا ، أى تحقيقهم مستويات من النضج العقلى أسرع من نضجهم العمرى ، مما يعنى استعدادهم لأن يبدأوا تعليمهم وتثقيفهم المنظم فى سن مبكرة، وهو ما يترتب عليه تغيرات جديدة فى مفاهيم الفروق الفردية والاستعداد للتعلم والقدرة عليه ؛ إذ إن هذا الأمر قد يؤدى إلى أن نرى غرفة الصف الواحد تضم أفرادا فى فئة عمرية واحدة لكن استعدادهم وقدراتهم متباينة ، كما قد نرى غرفا أخرى تضم أفرادا من مستويات عمرية مختلفة . ولكن لديهم استعدادات وقدرات تعليمية واحدة أو متقاربة .

إن أهم ما يجب أن يتوافر فى الكتاب المدرسى لتفعيل الثقافة لدى الطفل هو أن :

– تثير المواد التعليمية انتباه الطفل ، وتقدم إليه بشكل جذاب سواء أكانت لفظية أم غير لفظية .

- يناسب الطفل فى مرحلته العمرية من حيث قدراته وحاجاته وميوله القرائية والعلمية .

- يقدم بلغة مناسبة فى ألفاظها وتعبيراتها ومفاهيمها اللغوية وأنماط الجملة العربية وخبراته السابقة .

- يراعى البيئة المحلية والوسط الاجتماعى الثقافى الذى يعيشه الطفل من حيث المعلومات والمشكلات والمفردات اللغوية ودلالاتها .

- يحتضن صورا ورسوما معبرة موظفة لها دلالات واضحة لدى الطفل تستخدم الألوان المبهرة المبهجة ، وتطلق خيال الطفل عن طريق الحركة والصوت واللون بما يؤدى إلى تحقيق أهداف ثقافية .

- يتضمن إحالات للقراءة الموسعة عن موضوع ما فى مجلة أو قصة أو كتاب مناسب موجود فى مكتبة الصف أو مكتبة المدرسة .

- يستثير تفكير الطفل ويتحدى قواه العقلية والتفكيرية عن طريق أسئلة أو مشكلة تدور حول النص المقروء ، مستخدما (لو) السحرية التى تجعله يتصور ويتخيل مثل : ماذا كان يمكن أن يحدث لو أنك كنت مكان بطل القصة ؟

- يسمح المحتوى القرائى بأن يتحول إلى حوار أو مسرحية يقوم الأطفال بأدائها مستخدمين اللغة العربية الفصحى الميسرة .

- يقدم القيم الأخلاقية بأسلوب غير مباشر ، عن طريق الحوار وإعطاء الأمثلة والأسلوب القصصى الممتع .

- يثرى ثقافة الطفل ، ويجعلها متوافقة مع روح العصر ومع ثقافة عصر المعلومات ورؤى المستقبل .

- يستخدم المواقف والتشكيل اللغوى الذى يفضى إلى البهجة والتسامح والحرية ويصقل مواهب وطاقات الأطفال المبدعين .

- يركز على أسلوب التفكير العلمى ، ويسعى إلى تشكيل العقلية الناقدة المتسائلة المبدعة الساعية لفهم الحياة وتطويرها .
- يكون نظرة عامة وسلوكا عاما لدى الأطفال ويقدم بنيانا كليا لا مجرد عناصر ثقافية مشرذمة من عقائد وأفكار ومعلومات وقيم وتقاليد وأنظمة وفنون وآداب وسلوك ؛ بهدف تحقيق الاتصال الثقافى المتكامل والوظيفى .
- تقديم حصيلة نهائية لمدى التأثر بثقافة المجتمع دون اشتراط استيعابه لكل شاردة أو واردة فى تلك الثقافة على أن تتسع الحصيلة النهائية لكيفية تنظيم الطفل لمضمون الثقافة ؛ حتى يستطيع أداء سلوكه والقيام بدوره الاجتماعى على أساس أن العناصر الثقافية لا يمكن أن تقود إلى سلوك ما لم تتكامل فى كيان ثقافى .

إننا وفى عصر المعلومات ، قد انتهى العمر الافتراضى لنمط الفكر العلمى والتعليمى القائم على التجزئة ، حيث إنه يعجز عن مواكبة احتياجات المجتمع ومواجهة تحديات المستقبل . لقد أصبح من أبرز خصائص التطور المعرفى الراهن والمستقبلى هو التكامل المعرفى ، ذلك التكامل الذى يحدث بين حقول المعرفة المختلفة ؛ مما يعنى أن التعامل مع أى مشكلة يستدعى معرفة متصلة من حقول زالت من داخلها الحواجز الاصطناعية بين فروعها . وهذا ما يتفق وطبيعة مرحلة الطفولة وخصائصها ، وهو مايؤثر بدوره على شكل ومضمون العملية التعليمية ، التى تواكب نمط التفكير العلمى المتكامل .

إن رؤيتنا لمناهج المستقبل فى ضوء ثقافة الأطفال تنهض على أساس النظر إليها باعتبارها مدخلات ، وأن تنمية عمليات التفكير والقدرة على الإنتاج المعرفى ينبغى أن تكون هى المخرجات . ولابد من تجاوز نمط التفكير والتعليم التقليدى القائم على التجزئة والتقسيمات المصطنعة والاتجاه إلى المناهج المتكاملة بشكل جذرى التى تعين المتعلم على إدراك تكامل المعرفة وتكوين نظرة شاملة للظواهر المختلفة وتزود المتعلم بالقدرة على التعلم الذاتى والتعامل مع المصادر المتعددة للمعرفة .

إن استراتيجية المراجعة الشاملة والمستمرة فى مناهجنا الدراسية التى تقوم بها وزارات التربية والتعليم والمعارف فى الدول العربية الآن أمر ضرورى ، لابد وأن تستمر فى المستقبل وتزداد فعاليتها حتى نصل أولا إلى استراتيجيات جديدة فى بناء مناهجنا ، تمكننا من التوزيع العادل للمعرفة على كل أبناء الأمة العربية من جميع الشرائح والفئات الاجتماعية ؛ لنصل بالجميع إلى التعليم والتعلم بالإتقان وفقا لمعايير الجودة العالمية ، وحتى نصل ثانيا وفى عمليات مستمرة ومتواصلة إلى مناهج دراسية متكاملة متسقة تعكس المفاهيم والمبادئ التى نسير عليها دون تكرار أو حشو ، ومسايرة كل جديد . وحتى نصل ثالثا إلى تقديم الكتاب المدرسى الذى يساعد المتعلم على إطلاق قواه الإبداعية الخلاقة فى التعامل مع الحياة والبيئة الاجتماعية والثقافية المحيطة .

إن نظام التعامل الفاعل فى المستقبل هو الذى تصبح لديه القدرة على تطوير الذات العارفة ودفعها نحو البحث والاستقصاء عن طريق مصادر جديدة ومتعددة للمعرفة ، من خلال الاستثمار الأمثل لما تفرزه التكنولوجيا الحديثة من تقنيات ومبتكرات وأدوات التعليم الإلكترونى .

إن الخطة المقترحة هنا تتمثل فى تعدد مصادر المعرفة فى إثراء وتفعيل عمليات التعليم والتعلم ، من خلال :

- عدم الاقتصار على كتاب مدرسى كمصدر وحيد للتعلم والمعرفة ، بل يتم التوجه بشكل متزايد نحو تزويد المدارس بالأدوات التعليمية الجديدة والتكنولوجيا الجديدة متعددة الوسائط .
- الاستمرار فى تزويد المدارس بأعداد كافية من أجهزة الكمبيوتر ، وبالقدر الذى يصبح معه استخدام هذه الأجهزة جزءا لا يتجزأ من عمليات التعليم والتعلم.
- عقد اتفاق مع وزارات الاتصالات والمعلومات يتم بموجبه مد خدمة الإنترنت إلى المدارس وإلى منازل الطلاب نظير مقابل مادى مناسب .

- تحقيق مبدأ إزالة الجنسوية ، والحد من الفروق فى التعليم بين تعليم الأبناء وتعليم البنات فالكل سواء فى عصر المعلومات ، وأن التعليم يتم فى إطار رؤية مستقبلية لا رؤية ماضوية .

- الاستمرار فى تدريب المعلمين على الأدوار الجديدة التى يفرضها الاستخدام المكثف للمصادر المتنوعة للمعرفة فى عمليات التعليم والتعلم . وهذا الأمر يستوجب الاعتناء بالمحور الثقافى عند إعداد المعلمين ؛ بحيث يتسع ليشمل الثقافة فى عصر المعلومات .

- تطوير نظم التقويم وأساليبه بما يتناسب ودمج التكنولوجيا الحديثة ومصادر التعليم المتعددة فى عمليات التعليم والتعلم .

وهنا لابد لنا من وقفة لتوضيح : كيف نتعامل مع ثقافة العولمة ؟

العولمة ولو أنها نظام اقتصادى فى المقام الأول ، سياسى اجتماعى فى المقام الثانى ، إلا أنها بلا شك تحمل ثقافة جديدة تتمثل فى الغزو الفكرى ، والطوفان المعلوماتى ، والرموز التى تشيعها وتنشرها العولمة بكل وسائل الاتصال الحديثة فائقة القدرة ، ووسائل الإعلام فائقة السيطرة بما فيها من سينما وتليفزيون وإذاعة . وكلها تبشر بثقافة جديدة يطلق عليها البعض بثقافة القطيع الإلكترونى ، والبعض بثقافة عالم ماك نسبة إلى سلسلة ماكدونالد الغذائية ، والبعض ينسبونها إلى ثقافة العم سام ، رمز الثقافة الأمريكية .. وباختصار فإن لهذه الثقافة معالم أهمها أنها ثقافة تمجد الاستهلاك وخلق أسواق وإطلاق شهوات استهلاكية باعتبار أن زيادة الاستهلاك محرك قوى لزيادة الإنتاج وتنشيط الاقتصاد . وهى ثقافة تمهد للعنف كأسلوب حياة وكظاهرة عادية وطبيعية . وهى ثقافة تمجد الفردية والأنانية ، وهى ثقافة مادية بحتة لا مجال فيها لروحانيات أو عواطف ، ولا مساحة فيها للمشاعر الإنسانية ولا للعلاقات الاجتماعية القائمة على التعاطف والتكافل والاهتمام بالآخرين . وهى ثقافة تستهين بكثير من القيم المجتمعية ، فهى لا تقيم وزنا لهوية

أو انتماء ، ولا تهتم بحقوق المواطنة ولا بفرص العمل ولا باعتبارات البيئة ، ولا تقيم وزنا للمجتمع المدنى ، وتشجع على الانتهازية والجشع .

إن أسلوب مواجهة هذه الثقافة الجديدة مهمة قومية .. ولكنها مهمة صعبة نتيجة لثورة الاتصالات الهائلة وللتقدم التكنولوجى الفائق ، والذى بفضله أصبحت قدرة أجهزة الإعلام وأدوات نشر الثقافة الجديدة كاسحة ، ومهمة فرز المعلومات تكاد تكون مستحيلة بسبب طوفان المعلومات والرموز والأفكار التى تصبها مؤسسات العولمة كالطوفان .. إضافة إلى أن تعدد الرسائل وتنوع الوسائل يحاصر الإنسان من كل اتجاه فى عصر السماوات المفتوحة وفى ظل انهيار حواجز الزمان والمكان .

إن المعلومات تشكل الذهب الأسود لعالم ماك ، ومن يملك أدوات البث والإرسال يملك إملاء نوع المحتوى فى كل الأحوال .

إن صناعة الوسائل السمعية والبصرية هى ثانية أكبر الصناعات فى أمريكا وتأتى بعد صناعة الطيران والفضاء ، وأصبحت السينما محورا أساسيا فى التجارة العالمية ، وأفلام الفيديو وبرامج التليفزيون هى الضيف الذى يقتحم الديار دون استئذان ، وصناعة الترفيه والمعلومات والأفلام هى صناعة مركبة ومتكاملة وهى تشكل رقابة محكمة على ماعداها . وتقع مسئولية هذا الواقع الثقافى الخطير على مناهج التعليم ، حيث تنمية القدرة على التفكير العلمى ودراسة تاريخ العلم وعلماء العرب وهذا يمنح النشء الجديد عوامل المناعة والمقاومة والقدرة على الفرز والاختيار ، وعليها أن تعزز شعور الانتماء والولاء للطفل العربى والاعتزاز بجذوره وقيمه .

وتقدم مناهج التربية الدينية حيث إن التربية الدينية الإسلامية السمحة تدعو للخلق الرفيع والسلوك القويم والعقيدة المستنيرة والتعاون والإخاء والتكامل

والتراحم ، وهى قادرة على تدعيم الجانب الروحى وتعزيز الولاء والانتماء لله ثم الوطن .

وتقدم مناهج اللغة العربية والتاريخ حيث جرعة مشبعة من اللغة العربية لغة القرآن الكريم ، والتاريخ القومى واصفة حركة الشعوب ونضالها ، مركزة على سير الأبطال والقادة وتضحياتهم ، والدروس المستفادة من النصر والهزيمة عبر حروب التتار والصليبيين والصهاينة اليهود ومن يقفون خلفهم ، ثم المعالم التاريخية وحضارة الأجداد فى سياق أخلاقى ، وتقدم الأنشطة الصفية بأنواعها والتى تحتضن الطفل وتغرس فيه القيم والأخلاق الفاضلة وتقوى جهازه المناعى ضد إيدز الثقافة الجديدة الوافدة . وتعلمه أن يفكر عالميا ويطبق محليا والقدرة على اتخاذ القرار والتفاوض والحوار والشرح والتفسير ؛ من أجل مستقبل عربى أكثر إشراقا تسطع فيه شمس الوحدة العربية فى عالمنا العربى الكبير .

* * *